

الفرصة الأخيرة



www.balagh.com

منذ صغرى وأنا أكره الأماكن الضيقة.. هذه الأماكن تجعلني أحس بالإختناق؛ لذا كنت ولا أزال أهرب منها وأبتعد عنها وأنا أرتجف من الضيق والخوف.

عندما كبرت علمت أنّ هذا مرض من الأمراض النفسية، ولكنني لم أستطع الشفاء منه ولا التخلّص منه براً ثُمَّ.

ولكنها أنا ذاتي أدخل مكاناً من هذه الأماكن الضيقة دون إرادة مني.. أدخله مضطراً وعلى الرغم مني، كانوا قد لفّوني ووضعوني في تابوت طويل وضيق.. كنت أسمع جيداً أصوات من حولي.. ومع أنني كنت مغمض العينين، إلا أنني - بطريقة ما - كنت أستطيع رؤيتهم.. كانوا يقولون: يا للمسكين! لقد مات في عز شبابه.. لقد كانت له آمال عريضة وأعمال لم يكملها.

كانت هناك فعلاً أعمال عديدة لي بقيت ناقصة تنتظر مني إنجازها.. فمثلاً لم أستطع فتح محل جديد لإبني، كما لم أنته من دفع الأقساط للسيارة والتلفزيون الملون، كما أصبح أملي في إنشاء شركة كبيرة في المستقبل أجمع فيها الأصدقاء أملاً بعيداً، ومع أنّ الشتاء أصبح على الأبواب، إلا أنني لم أكن قد اشتريت بعد الفحم والخطب لمدفأة البيت، كما لم أصلاح أماكن تسرب المياه في سقف البيت، وبينما كنت أستعرض في ذهني الأعمال التي بقيت ناقصة تنتظر مني إنجازها فوجئت بصوت يرن في أذني..

صوت وجلت منه روحني، ونفّذ إلى أعماق عقلي وتردد صداؤه هناك.. كان كأنّه صادر عن مكبر للصوت: لقد فات ذلك وانقضى!

وبحسنة قلت في نفسي: "ل ليته لم يَفْعُلْ ولم ينقض".

لا أدرى كيف وقع لي ذلك الحادث.. كيف وقع مع أنني أجيد قيادة السيارة.

وبينما كنت أحاول أن أستجمع في ذهني ما حدث؛ أحسست أن أصدقاء يحيطون بي ويحاولون غلق غطاء التابوت الذي أتمّدّد فيه دون حراك.. ومع أنني حاولت أن أصرخ بكل قوتي وأن أنهض من مكانني لأنهم من ذلك؛ إلا أنّني فشلت وعجزت.. إذ لم أستطع الحركة ولا التفوّه بأية كلمة.

بعد قليل جثم على طلام كثيف.. حوالٌت بصرى إلى شقوق التابوت التي كان يتسلل عبرها ضوء قليل.. وفي فرع لا يوسف قلت لنفسي:

- يا إلهي! يا إلهي!.. ماذا ستكون حالى الآن؟ ما العمل؟

كنت عاجزاً عن التفكير من شدة الفزع، في هذه الأثناء حُملت على الأكتاف.. وبذؤوا يسرون ببطء، كان التابوت يهتز قليلاً وكان من الواضح من الأصوات التي كانت تصلني من الخارج أنّ المطر ينهمر.. كان صوت قطرات الماء يختلط مع صوت صرير خشب التابوت.

لشك" أزّهم الآن في طريقهم إلى المسجد لأداء صلاة الجنائزه..

عندما خطر ببالي المسجد تذكرتُ أزّه مع كونه قريباً جدّاً من داري، وعلى رغم ندائيه المتكرّر ودعوته للصلاة خمس مرّات كل يوم؛ فإزّني لم أجد متسعًا من الوقت للذهاب إليه.. ولكنني كنت عازماً على البدء بالصلاحة عند بلوغي سنّ الخمسين.. الكل يعرف هذا، لقد قلت ذلك مراراً لأصدقائي، نعم كنت سأبدأ بالصلاحة، وكانت سأترك كذلك عاداتي السيئة التي كان الكثيرون يشكون منها.

أجل!.. لولا هذا الحادث لأصبحت في المستقبل شخصاً جيداً.. لولا هذا الحادث.

ومرّة أخرى طرق سمعي ذلك الصوت الذي لا أعرف مصدره: "لقد فات ذلك وانقضى".

بعد قليل حُملت على الأكتاف مرّة أخرى.. إذن فقد انتهت صلاة الجنائزه، وعندما مرّرت أمام مقهى محلتنا سمعت الضحكات المرحة لأصدقائي الذين كنت ألعب معهم الورق كل يوم.. لشك" أزّهم لم يسمعوا بعد بخبر وفاتي.

بعد أن بعثت الأصوات وخفت؛ شعرت من ميل التابوت أزّهم يصعدون التل نحو المقبرة.. شعرت أنّ الكفن قد ابتلّ في عدة مواضع من تسلل قطرات الماء من شقوق التابوت، إذ كان المطر المنهمر قد اشتد، أصغى سمعي للأصوات في الخارج.. كان بعض أصدقائي يتحدّثون فيما بينهم عن ركود السوق، بينما كان البعض الآخر يمدح ويثنّي على فريق المنتخب الوطني في مباراته الأخيرة.. بينما همس أحد حاملي التابوت في أذن صاحبه: انظر إلى اليوم الذي اختاره صاحبنا ليموت فيه! كانت تصرّ فاته معكوسه على الدوام في حياته.. لقد ابتلّنا من الرأس حتى أخمص القدمين يا أخي.

لشك" أنّ هناك خطأ ما.. لشك" أن ما أسمعه ليس صحيحاً، وإنما فهل من المعقول أن يتفوّه أصدقائي

الذين ضحيت كثيراً من أجلهم بمثل هذا الكلام؟!

بعد قليل وصلنا إلى المقبرة.. أنزلوا التابوت ووضعوه على الأرض.. رفعوا الغطاء.. وامتدت الأيدي إلى جسدي الميّت ورفعوه وأخرجوه من التابوت.. ثم بدؤوا ينزلونه في حفرة تجمعت بعض المياه في قعرها.

ومن مكانني الذي سجيت فيه حاولت أن أرى ما حولي.. يا إلهي! أليس هذا هو القبر؟ لماذا لم يجعل في خاطري حتى الآن أنني سأدخل فيه؟ لماذا لم أفكر في ذلك من قبل؟ لا أحد يسمع صرخاتي التي أحارول إطلاقها.. لا أحد.

أهال أصدقائي التراب على.. كانوا كمن يتسبقون في هذا..

مرّة أخرى بقيت وحدي في الظلام.. بقيت في ظلام دامس.. وبكل العجز الذي أحسست به.. ومن أعماق قلبي بدأت أدعوا بحرارة: يا رب! يا رب!.. أمّا من فرصة أخرى أما مي؟! أعطني فرصة أخيرة.. سأمثل لجميع أوامرك.. سأكون عبداً لك كما تريده.. سأكون كما تريده لكى تجعل قبري روضة من رياض الجنة.. يا رب! سك أذني ذلك الصوت مرّة أخرى وبحدة أكثر: "لقد فات ذلك وانقضى".

كنت أسمع صوت التراب وهو يرطم بالألواح التي تغطي تابوتني.. كان كل ارتظام يدوي في أذني دوي الرعد.. كان كل كيان يرتجف فرعاً وهلعاً.

وفي محاولةأخيرة ويائسة تململت من مكانني.. وفتحت عيني.. كنت في فراشي المرير في غرفتي.. كان ذلك كابوساً مريعاً.. وكان صديقي الدكتور يحاول إيقاظي من الكابوس ويقول: لقد فات ذلك وانقضى.. أنظر أنت بخير.. كان كابوساً انتهى وانقضى.

وببطء استعدلت في فراشي.. كان كل جسمي غارقاً في العرق.. شعرت بأنّني فقدت أرطالاً من جسمي فجأة.. كان المطر ينهر في الخارج بشدة والبيت يهتز من صوت الرعد.

وبین النظارات المصوبة إلى من حولي في دهشة وفضول حاولت أن أستجمع قوائي.. همست في صوت خافت: - حمداً لك يا رب!.. حمداً لك بعدد ذرات كيانني.. لقد منحتني فرصة أخرى لكى أكون عبداً صالحـ.. حمداً لك وشكراً لك يا رب!

.....
(*) أدب تركي

ترجمة: أورخان محمد علي - يرحمه الله -